موقع الشيخ التركماني
https://www.turkmani.com

مقال: الإمام ابن حزم والحب

المصدر: مجلة الثقافة

بقلم: علي أدهم

رقم العدد: 644

تاريخ الإصدار: 30 أبريل 1951

إعداد: موقع الشيخ عبد الحق التركماني

https://www.turkmani.com

الإمام ابن حزم والحب

للأستاذ علي أدهم

كان الحاجب المنصور بن أبي عامر من كبار الغزاة في تاريخ الإسلام ، وفي طليعة رجالات الأندلس المعدودين ، وحماتها الذائدين عنها والموفرين عليها حقوقها ، والمنصرفين إلى تأييد ملك السالفين بها ، وتثبيت أركانه ، وما أحسب في ذلك شكاً ولا خلافاً ؛ ولكن هذا الفاتح القهار والغازي الظافر والبطل المتمجد قد تورط في خطأ أملته عليه إملاء وفرضته عليه فرضاً ودفعته إليه دفعاً طبيعة موقفه التاريخي من ناحية ، وطموحه ومطامعه من ناحية أخرى ؛ فقد استطاع بحذقه ولباقته ودهائه وسياسته أن يستأثر بالسلطة والنفوذ ، ويحجر على الخليفة الشرعي هشام الثاني ، ويستبد بالأمر دونه ، ويقضي على المنافسين ، ويزيلهم من طريقه بأساليب قاسية ماكرة ، وحقق بذلك الكثير من أهدافه ؛ ولكنه أضعف فكرة السلطة الشرعية ، وأزال هيبتها من النفوس وجعل الاجتراء عليها والاستخفاف بحقوقها أمراً ميسوراً غير مستنكر ؛ فلما مضى لسبيله وعجز الذين جاءوا بعده عن أن يسدوا مسده ويقوموا مقامه ، سادت الأهواء واضطربت الأمور ، واستشرى الفساد ؛ وإذا ضعفت المبادئ وعجزت الرجال وقلت الكفايات فغير غريب أن تعم الفوضى ، ويسود الظلام ، وتنطلق الشهوات من عقالها ، وتتحرك المطامع والأهواء ، وتكثر عوامل الهدم والتدمير والإبادة والخراب .

والمؤرخ الذي يطالع أخبار هذه الفترة المحزنة القاتمة في تاريخ الأندلس يهوله ما يشاهد فيها من انتكاس الأخلاق وفساد الطباع ، والتواء النفوس ، ومشاهد الغدر والخيانة والخسة والنقص ، والقسوة والنذالة ، حتى يكاد يسود ظنه في السواد الأعظم ، كما يقول أبو تمام في بيته المشهور :

إن شئت أن يسود ظنك كله ... فأجله في هذا السواد الأعظم

ومثل هذا المؤرخ لا بد أن يستروح ، ويستشعر شيئاً من السرور والطمأنينة ، ويعاوده جانب من الثقة بالنفس البشرية حينما يواجه في ذلك العصر المظلم شخصية عفة نبيلة قوية مترفعة سامية محلقة مثل شخصية الإمام أبي محمد علي بن حزم ، العالم الفقيه الذي ملأ طباق الأرض علماً ، والفيلسوف المتأله الذي اشتهر بقوة الجنان ، وحدة اللسان ، حتى قيل فيه : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين » .

هذا الإمام الجاد الصارم الذي يقول فيه ابن حيان نابغة مؤرخي الأندلس وكبيرهم : « إنه حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة » قد أخرج للناس كتاباً في وصف الحب ، ودراسة أطواره ، وتحليل عوارضه وأحواله ، يعد من الآثار البارزة في تراثنا الأدبي ، ومن حقنا أن نفخر ونعتز بأنه من بين مفكرينا الكبار وفقهائنا الأعلام ، من وجد الحب جديراً بالدرس خليقاً بالبحث والتحليل ، فقد كان معظم الفلاسفة والمفكرين من عهد الفلسفة اليونانية إلى القرن التاسع عشر يرون الحب من المسائل التي لا يصح لهم أن ينزلوا من عليائهم إلى الكلام عنها وتناولها بالملاحظة والدرس والتعليل ؛ ولعل أول من خالف هذا التقليد وشذ عن تلك السنة من بين هؤلاء الفلاسفة هو الفيلسوف الألماني اللامع الجرئ آرثر شوبنهاور ؛ فقد خص الحب بفصل شائق حافل من فصول كتابه العظيم المسمى « الدنيا فكرةً وإرادةً » ، وتبعه في ذلك تلميذه ومتقبل آثاره الفيلسوف إدوارد فون هارتمان ؛ فقد عقد في كتابه القيم « فلسفة اللاشعوري » فصلاً بديعاً عميقاً عن الحب الجنسي ، اقتفى فيه آثار شوبنهاور وأربى عليه ببعض الملاحظات النافذة ، والتحليلات الموفقة ؛ وأكبر ظني أن هذين الفيلسوفين الجليلين قد مهدا السبيل وأنارا الطريق لبحوث العلامة النفسي الكبير فرويد الذي جعل الحب الجنسي حجر الزاوية في بحوثه وفلسفته .

وكتاب « طوق الحمامة » ليس كتاباً عن الحب فحسب ، وإنما هو كذلك كتاب اعترافات أو ترجمة ذاتية للعلامة ابن حزم ؛ فقد ذكر لنا فيه الكثير من أحاديث نفسه ، ودخائلها وخفاياها ، وما انتابها من أزمات وشدائد ، وما هزها وهالها من حوادث ووقائع ، ومن خلال وصفه لنفسه وتحدثه عن نوازع قلبه استطاع أن يشرف بنا على عصره ،

ARCHIVE

ويقدم لنا وثيقة نادرة عن أحواله وآدابه، وأخبار رجاله ونسائه قل أن نعثر على مثلها في مراجع الأدب والتاريخ.

ويكشف لنا هذا الكتاب النادر عن صفاء نفس ابن حزم، ورهافة حسه، ورقة شعوره، وقوة عواطفه، وعمقها وصدقها، ومتانة عقيدته، ومضاء إرادته؛ ونستطيع أن نتبين منه لماذا كان هذا الرجل العظيم القلب والعقل وزيراً يعتمد عليه في علاج المشكلات، ومؤلفاً من أغزر المؤلفين إنتاجاً في تاريخ التأليف الإسلامي، وفقيهاً إماماً، ومناضلاً ثابتاً في نضاله، لا تلين قناته ولا تصدع صفاته، ولم يكن الإمام ابن حزم محباً عميق الحب مشبوب العاطفة فحسب، وإنما كان كذلك صديقاً صحيح الود، صادق العهد، جديراً بقول المتنبي:

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبى
لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وقد ألف هذا الكتاب استجابة لدعوة صديق كان على ما يظهر من أعز أصدقائه عليه وآثرهم لديه، وأشار إلى ذلك في مقدمته بقوله: «وكلفتني أعزك الله أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه، وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله، على سبيل الحقيقة، لا متزيداً ولا مفتناً، لكن مورداً لما يحضرني على وجهه، وبحسب وقوعه، حيث انتهى حفظي، وسعة باعي، فيما أذكره. فبادرت إلى مرغوبك، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته. فالأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به رحب المنقلب وحسن المآب غداً، والذي كلفتني فلا بد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي وأدركته عنايتي، وحدثني به الثقات من أهل زمني، ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي، ولا أتحلى بحلي مستعار».

وقد التزم ابن حزم في كتابه هذه الحدود، واقتصر على ذكر مشاهداته وتجاربه، وما سمعه ممن يوثق به من أصحابه، ولم يجعل الكتاب معرضاً لأخبار العشاق المتداولة، وقصصهم المألوفة، كما صنع غيره من الذين تصدوا للتأليف في هذا الموضوع، مثل داود الأنطاكي في كتاب «تزيين الأسواق في أخبار العشاق» وغيره من مؤلفي الكتب الذين يعمدون إلى جمع الأخبار، وحشد الأشعار، بغير تحقيق ولا تمييز، ولا تعليل ولا تحليل. أما ابن حزم فليست هذه طريقته، وله من شخصيته الممتازة وتجاربه المستفيضة ومشاهداته الكثيرة ما ينأى به عن هذا السبيل المطروق، ويجنبه هذه الخطة المبتذلة.

وقد أوقف ابن حزم الفصل الأول من كتابه للكلام عن «ماهية الحب». والحب عنده لا تدرك ماهيته بالفكر، وإنما تدرك بالتجربة، وهو يقول في ذلك: «الحب أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة» ولعله قد نظر في ذلك إلى قول المتنبي:

إلام طماعيــة العــاذل   ولا رأي في الحب للعاقل

وقوله: «لهوى النفوس سريرة لا تعلم»

ويذهب ابن حزم إلى أن الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع؛ فما تناسب من النفوس اتصل، وما تخالف منها انفصل؛ فسر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال، والشكل يستدعي شكله، والمثل إلى مثله ساكن؛ فالمجانسة عند ابن حزم عمل محسوس وتأثير مشاهد، والتنافر في الأضداد، والموافقة في الأنداد، ويؤيد ذلك ابن حزم بقوله: «ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى، ويعلم فضل غيره، ولا يجد محيداً لقلبه عنه، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه».

فالحب إذاً استحسان روحاني وامتزاج نفساني. ويروي لنا ابن حزم أن أبقراط اغتم حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه؛ فقيل له في ذلك، فقال: «ما أحبني إلا وقد وافقته على بعض أخلاقه».

ويعتقد ابن حزم أن المحبة لا تصح إلا بعد كثرة المشاهدة وتأكد الألفة، ولا يكتم شكه في مسألة الحب من أول نظرة، وهو يقول في ذلك: «إني لأطيل العجب من كل من يدعي أنه يحب من نظرة واحدة، ولا أكاد أصدقه، ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة، وأما أن يكون في ظني متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً في حجاب القلب فما أقدر ذلك، وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل، وبعد ملازمة الشخص لي دهراً، وأخذي معه في كل جد وهزل، وكذلك أنا في السلو والتوقي؛ فما نسيت وداً لي

قط ، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ، ويشرقني بالماء ، وقد استراح من لم تكن هذه صفته ، وما مللت شيئاً قط بعد معرفتي به ، ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائي له ، وما رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت ، لا أقول في الألاف والإخوان وحدهم ، لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك ، وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجى يعتادني وولوع هم ما ينفك يطرقني ، ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش أستأنفه ، وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو » .

ويعتقد ابن حزم أن هذا الحب الصادق الذي يسير على مهل ويتولد بطول الامتزاج يلائم رأيه في أن الحب اتصال بين النفوس في أصل عالمها العلوي ، وأن ما يقع من أول وهلة إنما هو مجرد استحسان جسدي .

وقد عقد في كتابه فصلاً عنوانه أن من أحب صفة في محبوبه لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها ؛ وبعد أن روى أمثلة تعزز ذلك مستمدة من مشاهداته ومعلوماته عقبها بقوله : « دعني أخبرك أني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو أنه على الشمس أو على الحسن نفسه ، وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت ، لا تؤاتيني نفسي على سواه ، ولا تحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه ، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله ، وأما جماعة خلفاء بني مروان رحمهم الله ولا سيما ولد الناصر منهم فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة لا يختلف في ذلك منهم مختلف » وإمامنا العلامة كان من الذين يحبون الشقراوات ، وكذلك كان المرحوم والده ، ونلاحظ هنا طريقة ابن حزم ، فهو يصف العارض من عوارض الحب ثم يستدل عليه بالشواهد ويؤيده بتجربته الخاصة .

وفي الفصل الذي يتكلم فيه عن « البين » يقول : « دعني أخبرك أني أحد من دهي بهذه الفادحة ، وتعجلت لي هذه المصيبة ، وذلك أني كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية كانت فيما خلا اسمها نُعم ، وكانت أمنية المتمني ، وغاية الحسن خلقاً وخلقاً وموافقة لي ، وكنت أبا عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الأقدار ، واخترمتها الليالي ومر النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هي دوني في السن ؛ فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها .

وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل الفداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليّ مسارعاً طائعاً ، وما طاب لي عيش بعدها ، ولا أنست بسواها ، ولقد عفى حبها على كل ما قبله وحرّم ما كان بعده ، ومما قلت فيها :

مهذبة بيضاء كالشمس إن بدت ... وسائر ربات الحجال نجوم
أطار هواها القلب عن مستقره ... فبعد وقوع ظلّ وهو يحوم

وفي الكلام عن « الهجر » يقول لنا هذا الرجل المجرب والحكيم الفطن الذي عرف الدنيا وخبر الناس : « لقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبري الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بميله إليه ، وصحة مودته له ؛ وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب ، والمتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان ، قد غمره السخط ، وغلب عليه الجفاء ؛ ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحال الأولى أشد من الحديد ، وأنفذ من السيف ، لا أجيب إلى الدنية ، ولا أساعد على الخضوع ، وفي الثانية أذل من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجع ، وأتحلل بلساني وأغوص على دقائق المعاني ببياني ، وأفنن القول فنوناً ، وأتصدى لكل ما يوجب الترضي » .

وموجز القول أن في كتاب « طوق الحمامة » نظرات فلسفية قيمة وتحليلات نفسية ثمينة ، وخبرة بالناس والحياة واسعة شاملة ، مع السرد الممتع والعرض الشائق ، وقد يسر ذلك لابن حزم ثقافته العالية ، ونشأته الارستقراطية ، وقوة عواطفه وأحاسيسه ، وكثرة تجاربه ومشاهداته .

علي أدهم